ملاحظات منهجية حول تدريس قضية فلسطين في المناهج الجامعية العربية

"الاحتلال اليهودي . الصهيوني لفلسطين وقيام إسرائيل 1897-1948"

أ.د. محمد حواش[1]

mohamedhaouach@yahoo.fr

مقدمة: شكلت نهاية الحرب العالمية الثانية ظرفية دولية مناسبة لانطلاق حركات تحرر وطنية في مجمل البلدان العربية من السيطرة الاستعمارية، باستثناء فلسطين التي كانت تعيش ساعتها مشهدا مأساويا تمثل في انتقالها الجبري من السيادة الفلسطينية إلى مستعمرة يهودية-صهيونية تحت اسم "إسرائيل". فقد تم في 14 من ماي عام 1948 الإعلان رسميا عن قيام هذا الكيان الاستيطاني على أرض فلسطين، ونال اعترافا فوريا من قبل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، ثم قبل في السنة الموالية عضوا كامل العضوية في هيئة الأمم المتحدة. أما الفلسطينيون، أصحاب الأرض الشرعيين، فقد تعرضوا للطرد والتشريد، وتحول جلهم إلى لاجئين داخل البلدان العربية وخارجها. ومن بقي منهم داخل الكيان الإسرائيلي، تحول إلى أقلية دينية وعرقية ومواطنين من الدرجة الثانية تحت اسم "عرب إسرائيل".

وهكذا، وفي وقت قصير لا يتعدى خمسين سنة، انتقل المشروع الاستعماري الذي رسمه المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا سنة 1897م إلى حقيقة ملموسة سنة 1948م. تمثل هذا المشروع في اعتماد خطة استيطانية من طراز فريد؛ تم بمقتضاها تحويل فلسطين من أرض عربية، يشكل فيها اليهود أقلية أقل عددا حتى من الأقلية المسيحية، إلى مستعمرة يهودية-صهيونية. ولتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، وظفت وسائل مختلفة؛ بدأت بالمؤامرة والاحتيال، وانتهت بالإبادة والطرد الجماعيين لأهل الأرض الشرعيين. ونفذت هذه الخطة الاستيطانية بدعم ومؤازرة من الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى وفي طليعتها إنجلترا، صاحبة وعد بلفور الصادر سنة 1917، وبتدبير محكم من المنظمة الصهيونية العالمية ومختلف المؤسسات التابعة لها. إلا أنها تغذت من حالة الضعف والتجزئة التي كانت تعاني منها الأمة العربية والمسلمون عموما؛ حيث كانت أغلب بلدانهم ترزح، هي بدورها، منذ مدد متفاوتة، تحت طائلة الهيمنة الاستعمارية بشتى أشكالها ومسمياتها.

وغني عن القول، إن إقامة هذا الكيان الاستعماري على أرض فلسطين وتهديده المباشر لأمن ومستقبل الدول العربية وتسببه في اندلاع عدة حروب، فرض حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني فيما أضحى يعرف بـ«الشرق الأوسط»، واستنزفت بسب ذلك طاقات بشرية واقتصادية باهظة الثمن.. فكيف استطاع اليهود، المنضوون تحت لواء الحركة الصهيونية، أن يجسدوا هذا المشروع الاستيطاني البعيد المنال على أرض الواقع، ويرغموا أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين على العيش في المخيمات والملاجئ؟

وقد درجت أغلب الدراسات والأبحاث التي اشتغلت على هذا السؤال بالإجابة عليه تحت عناوين وتصورات منهجية لاتخدم بالدرجة الأولى ما يسمى بـ"القضية الفلسطينية" بقدر ما تخدم الاحتلال اليهودي- الصهيوني لفلسطين. لهذا السبب، خصصنا هذه المداخلة لمراجعة وتصحيح ما نعتبره عناوين خاطئة ومضللة وعيوبا منهجية في الكيفية التي تعالج بها هذه المادة على مستوى الدرس الجامعي، والتي تطال في مرحلة تالية الكيفية التي يتم على ضوئها البحث والكتابة في هذا الموضوع.

[]

ا- **اختلاق العناوين الخاطئة و المضللة** : ففيما يخص النقطة الأولى المتعلقة بالعناوين التي يدرس تحتها موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي- الصهيوني، نلاحظ أن هذه العناوين، الشائعة والمتداولة على الصعيد العربي، لاتستوفي شروط التوصيف العلمي الدقيق لعناصر الموضوع قيد المعالجة، فتترتب على ذلك نتائج منهجية عكسية عندما لاتسعف الدارس أو الباحث في النفاذ إلى صلب الإشكالية والإجابة عليها بما يمكن الطرفين من تحصيل فهم سليم لهذا الموضوع.

1. **القضية الفلسطينية**: لا أحد يجادل أن عبارة "القضية الفلسطينية" تحتل مكانا خاصا في قلوب ووجدان كل من يقدر حجم المظلومية الكبرى التي طالت الشعب الفلسطيني منذ سبعين سنة خلت. لذلك، نصر جميعا على ترديدها، في غير ما مناسبة، بأعلى صوتنا دفاعا على حق إخواننا الفلسطينيين في استعادة أرضهم وتحقيق استقلالهم. لكن يجب أن ننتبه أيضا إلى أن هذه العبارة لاتحتفظ دائما بهذا المعنى الإيجابي؛ فعندما نتناول بالدرس والتحليل ما هو في واقع الأمر محض احتلال تحت هذا العنوان، فإننا نخرجه، أولا، ومن حيث لاندري، من مجاله الطبيعي وهو الاحتلال اليهودي- الصهيوني لهذا البلد؛ لأن الأمر يغدو، بمجرد ذكر لفظة "قضية"، متعلقا بخلاف أو نزاع بين طرفين هما، من الناحية النظرية، على نفس القدر من الاعتبار السياسي والقانوني، بما يفيد، مبدئيا، بتساوي الحقوق السياسية والقانونية بينهما. في هذه الحالة، يغيب، ولو مؤقتا، الوجه الاستيطاني الاستعماري لإسرائيل في فلسطين، وينحصر الأمر في مجرد معالجة وتدبير خلاف داخلي بين مجموعتين يفترض أنهما يعيشان منذ أمد بعيد على أرض واحدة ويتمتعان بنفس الحقوق. ولهذا، نقول إن توصيفا مثل هذا يفضي، في مجال التداول العام، إلى نتائج مغلوطة، ويخدم الطرف الغاصب أكثر مما يفيد الطرف الذي ضاعت منه أرضه وأخرج منها ظلما وعدوانا.

2. **الصراع العربي . الإسرائيلي**: إلى جانب هذا العنوان الخاطئ والمضلل، الذي صار دارجا على كل لسان، نصادف عنوانا آخر هو أكثر منه تضليلا وخطورة، وهو المتمثل فيما نسمعه أو نقرءُه دائما تحت عنوان "الصراع العربي- الإسرائيلي". هنا تختفي عبارة القضية الفلسطينية؛ لأنها تصبح، حسب هذا التوصيف، قضية قومية تهم كل العرب بمختلف دولهم التي لاتقل عن عشرين دولة. هؤلاء كلهم يوجدون، حسب ما يرمي إليه ظاهر هذا العنوان المغلوط والمضلل، في حالة حرب جماعية مستمرة مع دولة واحدة ووحيدة هي إسرائيل. ومما لا شك فيه أن أي متلق لعنوان مثل هذا سيلفت نظره، منذ الوهلة الأولى، حجم المظلومية التي تطال الطرف الأضعف في معادلة هذا الصراع "اللامتكافئ"، وهو، في هذه الحالة، الطرف الإسرائيلي. لذلك، فالأولى بالدعم والمساعدة، في نظر الكثيرين ممن يجهلون حقيقية ما جرى ويجري على أرض الواقع، هي إسرائيل وليس الفلسطينيين، ما دام أن كل الدول العربية تتولى حماية هؤلاء والدفاع عنهم. وزيادة على ما في هذا الحكم من ظلم واضح، تضيع أيضا من جرائه الصورة الحقيقية لواقع الفلسطينيين؛ فعوض صورة اللاجئ الفلسطيني المحروم من كل حقوقه وموارد عيشه، والمنزوي طيلة حياته، جيلا بعد آخر، داخل المخيمات والملاجئ، يظهر هذا الفلسطيني، حسب مؤدى هذا العنوان، في صورة الطفل المدلل الذي تتولى حمايته والدفاع عنه أكثر من عشرين دولة عربية.

لهذه الأسباب، نجد أن أكثر من يحرص على ترويج مثل هذه العناوين ويتشبث بها هي إسرائيل لما لها من فائدة محققة في ذلك حينما تجعلها في حالة دفاع مشروع عن حقها في الوجود أمام حشد من الدول العربية. ولا نحتاج إلى تبيان كم أن حكما مثل هذا هو مجانب للصواب؛ لأن ما جرى ويجري لحد الآن، يؤكد أن الفلسطينيين هم وحدهم من يتولى الدفاع عن أنفسهم بأبسط الوسائل، وهي الحجارة، أمام كيان هو الأكثر تسلحا في منطقة الشرق الأوسط برمتها.

3. **الدولة العبرية**: أما الملاحظة الثالثة، التي تنضوي في هذا السياق، فهي تلك المتعلقة بالعبارة التي تحرص عدد من المنابر الإعلامية، مرئية كانت أومسموعة، داخل العالم العربي وخارجه، على ترديدها على أسماعنا حتى أضحت بفعل تكرارها مألوفة وعادية لاتناقش في مدى صحتها أحد. ونقصد بذلك عبارة "الدولة العبرية"، وكأن اسم إسرائيل لا يكفي وحده لشطب اسم فلسطين من الذاكرة بعد أن حلت مكانها على أرض الواقع، فتحرص جهات إعلامية بعينها على استبدالها أحيانا كثيرة بهذه التسمية ذات الحمولة التوراتية الشديدة الأثر والمغزى، مما يوحي للمتلقي أن دولة هذا إسمها لم تنقطع أبدا، كما لا يجب أن تنقطع، عما يدعونه أنه هو "أرض الميعاد". كما توحي هذه العبارة، بالتبع والنتيجة، أن إسرائيل الحالية هي مجرد استمرار طبيعي لهذه الدولة العبرية الطاعنة في القدم مهما اختلفت أسماؤها ومسمياتها. هذا، ناهيك عن أن اسم الدولة العبرية يراد منه أن يوهم المتلقي بامتداد سلطانها المجالي على مجموع فلسطين الحالية وأكثر

فيما تدعيه الرواية الصهيونية بـ"أرض اسرائيل الكبرى" التي لا يعلم أحد، على وجه اليقين، من أين تبدأ هذه الأرض وأين تنتهي؟

هكذا إذا يصبح طابع الاستمرار في عمر هذا الكيان المصطنع، وإن انقطع تاريخ ما يفترض أن يكون هو، حسب الرواية الصهيونية، مملكة داوود وسليمان، عليهما السلام، منذ حوالي ثلاثين قرنا، هو القاعدة، ويختفي، بفعل الحمولة القوية والمضللة لهذه العبارة، زمن هذا الانقطاع الطويل ويختفي معه وجود مجموع ساكنة فلسطين الذين لم يغادروا أبدا أرضهم منذ أن عمروها قبل حوالي خمسة آلاف سنة. فماذا يساوي، بعد هذا، اسم فلسطين الشديد الارتباط بما هو عربي وإسلامي أمام اسم إسرائيل أو الدولة العبرية اللذان يفيدان، على نحو خاطئ ومضلل، الاستمرار والتجذر فيما يزعمونه أنه هو "أرض يهودا وإسرائيل"؟

4. **فلسطين التاريخية**: بعد تمرير هذه الجرعة القوية من الأغاليط والترهات التي يراد منها تضليل المتلقي وقلب الحقائق التاريخية، يأتي القبول الطوعي من قبل هذا المتلقي لنتائجها النهائية ممثلة في واحدة من العبارات التي صارت متداولة في أيامنا هذه، وأقصد بها عبارة "فلسطين التاريخية". وهكذا، تحل عبارة "الدولة العبرية"، التي يفترض أن تكون قد عمرت لوقت قصير ومتقطع مكانا ما في بلاد كنعان ومضى على انقطاعها حوالي ثلاثة آلاف سنة، محل فلسطين التي استمرت عامرة بسكانها الأصليين منذ ما يناهزخمسة آلاف سنة، وكان يفترض أن ترى النور بصيغتها المعاصرة، أي دولة فلسطين، في التاريخ نفسه مثلها في ذلك مثل مجموع الدول العربية التي أخضعت لنظام الانتداب. ذلك، لأن مصطلح "فلسطين التاريخية" يفيد، بمجرد النطق به، أن هذه الدولة، حتى وإن وجدت تحت أي شكل من الأشكال، قد طواها النسيان وأضحت مجرد ذكرى تاريخية لبلد كان يعرف في وقت من الأوقات بهذا الإسم. وهكذا، يتبين لنا كيف تتوسل إسرائيل، بعد أن فرضت نفسها بالحديد والنار، بمثل هاته العبارات الملفقة بهدف **تهويد الزمان والمكان**[2] والتخلص من نقيضها المباشر عن طريق إفراغ اسم فلسطين من مدلوله الحي والواقعي، والرمي به في زوايا التاريخ البعيد.

لهذه الاعتبارات، نقترح الكف عن تناول موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال الإسرائيلي لأرضها تحت هذه العناوين الخاطئة والمضللة، والحرص على تناولها، بدل ذلك، تدريسا وكتابة، تحت عنوان نعتقد أنه هو الأصلح والأسلم من غيره، وهو: **الاحتلال اليهودي- الصهيوني لفلسطين وقيام الكيان الإسرائيلي (1897-1948)**؛ لأن الأمر لا يعدو، في حقيقته، مجرد احتلال أجنبي لأرض فلسطين من قبل جماعة من اليهود ممن آمنوا، اختيارا أو اضطرارا، بالدعاية الصهيونية التي روجت لديهم، بمختلف السبل والوسائل، أن أرض فلسطين هي "الوطن القومي الخالص" لمجموع يهود العالم أينما وجدوا. لذلك، نهجت الحركة اليهودية الصهيونية، بوصفها حركة استعمارية استيطانية، شكلا غير مسبوق من الاستعمار هو ما يسمى بـ"الاستعمار الإحلالي" حتى تتمكن من تحقيق هذا الغرض المتمثل في الإفراغ القسري والممنهج لفلسطين من سكانها الشرعيين ليحل مكانهم من شتى أصقاع العالم يهود تحت اسم "إسرائيل" منذ سنة 1948.

[]

ثانياً: منهجية الكتابة والتدريس (من الزمن القصير إلى الزمن الطويل) : إضافة إلى اختلاق العناوين الخاطئة والمضللة بغية تضليل الرأي العام العربي والدولي، نلاحظ أن تناول ومعالجة موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي الصهيوني، يشوبه، في نظرنا، عيب واضح وخطير؛ يتمثل في منهج التناول الذي نعتبره قاصرا من حيث طبيعته عن الإلمام بالكيفية المعقدة والمتشعبة التي مكنت الحركة الصهيونية من الاستفراد بفلسطين قبل سبعين عاما. للأننا نلاحظ أن المنهج السائد لحد الآن في تناول ها الموضوع، تدريسا وكتابة، لايخرج عن منطق المدى الزمني القصير عندما يتم حصر تفسير "النجاح" الذي أحرزته هذه الحركة في التوظيف الاستعماري لهذا المشروع الاستيطاني، ثم الترتيبات السياسية والإستراتيجية التي أعقبت الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ضمن أجواء ما عرف بـ"الحرب الباردة". فقد هيمن هذا المنظور التفسيري، المرتبط بتطورات القرنين 19 و20، على جل الكتابات التي تناولت هذا الموضوع؛ فأصبح وجود هذا الكيان السياسي في فلسطين مرتهنا، في نظر الكثير من الدارسين، بالمصالح الغربية الأوربية ثم الأمريكية والسوفياتية. وفي

إطار هذا الفهم، نالت نظرية "الدور الوظيفي" للمشروع اليهودي- الصهيوني، والتي قال بها عبد الوهاب المسيري في موسوعته[3]، شهرة واسعة داخل الأوساط الأكاديمية والسياسية على حد سواء.

ونحن بدورنا لا يسعنا إلا الإقرار بهذه الحقيقة؛ لأنه من الصعب تصور نجاح هذا المشروع خارج الدعم والمساندة اللذين كان يتلقاهما من قبل القوى الاستعمارية الغربية في صيغتها الماضية والحاضرة مقابل الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الأداة الاستعمارية في تحقيق مصالحهما في المنطقة. لكننا نلاحظ أن انطلاقة هذا المشروع وإحرازه ذلك النجاح، ينبغي البحث عنهما أيضا ضمن مدى زمني أطول يتجاوز المتغيرات السريعة التي شهدها القرنان 19 و20. فقد ارتبط ظهور هذا المشروع في نهاية ق.19، في تقديرنا، بوقائع وأحداث تراكمت عبر مراحل سابقة، وكانت بمثابة ممهدات ضرورية لإخراجه إلى حيز النظر قبل الانتقال به، لاحقا، إلى حيز التخطيط والتطبيق. تتمثل هذه الممهدات فيما نصطلح عليه بـ"المقدمات الخمس الكبرى الضرورية" التي وفرت للمنظمة الصهيونية العالمية، قبل تأسيسها سنة 1897، شروطا مثالية لتمرير خطتها الاستعمارية في فلسطين بالذات. وهي مقدمات جرت أحداثها ووقائعها باستقلال تام عن اليهود عامة والحركة الصهيونية على وجه الخصوص، لكنها شكلت شروطا ضرورية قدمت خدمة كبيرة وغير متوقعة لمشروعهم الاستيطاني في فلسطين.

لكن إذا كانت هذه المقدمات ضرورية لإخراج هذا المشروع الاستيطاني إلى حيز التفكير والنظر، فإن السير به إلى غايته القصوى المتمثلة في احتلال أرض فلسطين، مثل الإضافة النوعية التي تولى التخطيط لها وتنزيلها على أرض الواقع ما أضحى يعرف بـ"المنظمة الصهيونية العالمية" منذ المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد ببال بسويسرا سنة 1897. هذه الإضافة النوعية، هي التي يمكن أن نصطلح عليها بـ"الإنجازات الذاتية" التي نقل بسببها المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين من مستوى الإمكان النظري إلى مستوى التطبيق العملي حينما تم الإعلان عن قيام إسرائيل سنة 1948.

وهذا معناه أن الفهم السليم للحيثيات والأسباب التي مكنت اليهود من الاستحواذ على فلسطين واحتلالها، يتطلب الجمع بين هذه المقدمات الخمس الضرورية وتلك "الإنجازات الذاتية"؛ لأنه خارج تلك المقدمات، ما كان بالإمكان تصور ظهور مشروع استيطاني في فلسطين على الأقل في ذلك التاريخ وبتلك الكيفية. كما يجب الاعتراف أن هذه المقدمات الخمس الضرورية مهما بلغت أهميتها وخطورتها، ما كان بإمكانها وحدها تمكين اليهود من ترسيخ أقدامهم في أرض فلسطين من دون الاستغلال الذكي والماكر الذي مارسته هذه الأداة الوظيفية ممثلة في الحركة الصهيونية في تعاملها مع مختلف الأزمات الدولية التي شهدها العالم طيلة النصف الأول من ق.20.

انطلاقا من هذا التصور المنهجي، نرى أنه عوض أن تختزل نجاحات هذا المشروع في دور الشرطي أو الدركي، كما ألفنا سماع ذلك في الخطابات العربية والفلسطينية منها على وجه الخصوص، يجب البحث عنها في مدى زمني أوسع يستوعب مستويات التفاعل بين الجماعات اليهودية الوظيفية والمجتمعات الأوربية بصيغها التاريخية المختلفة، والتي مهدت لقيام الحركة الصهيونية في نهاية ق.19.

تأسيسا على هذا التصور، يجوز لنا القول أن أقصى ما فعلته المنظمة الصهيونية العالمية في سعيها إلى الاستحواذ على فلسطين أنها وظفت في وقت متأخر، لكن بمكر ودهاء، هذه المقدمات الكبرى في تفاعلها مع المتغيرات التي طفحت بها الساحة الدولية منذ الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ووجهتها لصالح مشروعها الاستيطاني الذي بات جاهزا، من الناحية النظرية، منذ مؤتمرها الأول سنة 1897.

لهذه الاعتبارات، نرى أن معالجة هذا الموضوع ينبغي أن تتم عبر مرحلتين متكاملتين: مرحلة أولى، نعرض فيها لهذه المقدمات الخمس الكبرى الضرورية، ومرحلة ثانية نحاول من خلالها توضيح الكيفية التي تفاعلت بها المنظمة الصهيونية العالمية، باعتبارها مؤسسة استعمارية وأداة رئيسة لتحقيق المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطن، مع المتغيرات الدولية الواقعة في الفترة ما بين انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1798 والإعلان عن قيام إسرائيل سنة 1948، وهذا ما نصطلح عليه بـ"المخططات الصهيونية"، أو الاستغلال الذكي والماكر للأزمات الدولية.

[]

ثالثاً- المقدمات الخمس الكبرى الضرورية : تتمثل المقدمة الأولى فيما يمكن أن نسميه بالروابط التاريخية و"عقيدة العودة". وتتجلى المقدمة الثانية في"عقيدة شعب الله المختار" والعجز الذاتي والموضوعي عن الاندماج. أما المقدمة الثالثة، فتتمثل في الحركة الصهيونية المسيحية و"عقيدة الخلاص البرتستانتية". بينما تتجسد المقدمة الرابعة في الحركات القومية الأوربية وفكرة "الوطن القومي اليهودي". أما المقدمة الخامسة، فتتجلى في الحركة الاستعمارية و"الدور الوظيفي للحركة الصهيونية".

المقدمة الأولى: الروابط التاريخية و"عقيدة العودة": تكمن أهمية هذه المقدمة في الروابط التاريخية التي يمكن أن تكون قد جمعت، عبر فترات متقطعة ومحدودة، بين طوائف معينة من اليهود وفلسطين. ورغم انقطاع وجودهم الفعلي بها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، استمرت ذكرى مرورهم بها قائمة بينهم، الشيء الذي جعل فكرة العودة إليها تحديدا قائمة بينهم باستمرار مع ما رافق حالة مثل هذه من قابلية مثالية للتوظيف السياسي إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وكان من نتائج اعتقاد ديني مثل هذا، وفق ما روجته الرواية الإسرائيلية[4]، أن اختيرت فلسطين تحديدا دون غيرها من المشاريع الاستعمارية المتعددة التي عرضت على الحركة الصهيونية في أنحاء شتى من العالم لتكون و"طنا قوميا" لهم قبل أن يحط هذا "الوطن القومي" رحاله في أرض فلسطين في نهاية المطاف.

فقبل أن يتفرق اليهود عبر نقاط المعمور المختلفة فيما يسمونه بـ"الشتات"، تدعي الرواية الإسرائيلية أن جماعات معينة منهم قد عاشت في فلسطين؛ لأنهم عرفوا، مثل غيرهم من الشعوب السامية، هجرات متتالية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال، واستقروا في جهات مختلفة منها فلسطين التي كان يسكنها قبلهم قبائل سامية أخرى أشهرها الكنعانيون واليبوسيون الذين إليهم يعود بناء وتعمير أكثر المدن شهرة الآن في فلسطين بما في ذلك القدس نفسها. وإذا كان وجودهم بها قد ظل هامشيا لمدة قرون، فإنهم تمكنوا من تأسيس كيانات سياسية محدودة في الزمان والمكان على عهد داود وسليمان عليهما السلام خلال القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. ثم تعرضت هذه الكيانات، سريعا، للزوال بسبب الانقسام السياسي والغزو الخارجي، لكن استمر وجودهم بفلسطين، وإن بأعداد أقل، مثلهم في ذلك مثل من سبقهم أو لحق بهم من مختلف سكان هذا البلد.

وسواء أصحت هذه الأحداث أم كانت من اختلاق الرواية الإسرائيلية، فمن المؤكد أن فلسطين قد استمرت، بعد ذلك، بمجموع ساكنتها، تحت الاحتلال اليوناني ثم الروماني فالبيزنطي. وشهدت، على عهد هذا الأخير، فتحا سلميا على عهد الخليفة الراشدي، عمر بن الخطاب، سنة 638/637م، وتلا هذا الفتح، هجرات عربية مكثفة تحولت على إثرها فلسطين إلى أرض عربية سكانا ولغة وإسلامية دينا وثقافة. أما اليهود، الذين كان جلهم قد غادروها منذ تاريخ بعيد، فأضحوا يشكلون فيها أقليه أقل عددا حتى من الأقلية المسيحية.

ما يعنينا من هذا كله، هو أنه رغم مغادرة غالبية اليهود فلسطين قرونا قبل تحولها إلى الحكم والإدارة الإسلاميين، ظل يسكنهم اعتقاد راسخ أن علاقة ما روحية قد جمعتهم بهذه الجهة. لهذا السبب، راهنت المنظمة الصهيونية، منذ البداية، على فلسطين دون غيرها من المشاريع الاستيطانية التي عرضت عليها؛ لأنها هي وحدها القادرة، في نظرهم، على إقناع أكبر عدد منهم على الهجرة إليها باعتبارها، حسب عقيدة البعض منهم، الأرض التي كتبها الله لهم فيما يسمى عندهم بـ"أرض الميعاد"، وهذا ما حاولوا إعطاءه صياغة قانونية معاصرة لتضليل الرأي الدولي العام عندما جعلوا من هذه "السابقة التاريخية" المفترضة مصوغا شرعيا للإستحواذ على أملاك الغير تحت ذريعة ما يسمونه بـ"الحق التاريخي"[5].

المقدمة الثانية: عقيدة "شعب الله المختار" والعجز الذاتي والموضوعي عن الاندماج: إذا كان استقرار اليهود في العالم الإسلامي لم يمنعهم، بوجه عام، من الاندماج في مجتمعاته، فإن عيشهم داخل المجتمعات الأوربية المسيحية لم يكن دائما متيسرا بسبب العداء المتبادل بين اليهود والمسيحيين، مما حال دون اندماجهم داخل هذه المجتمعات رغم طول المدة التي قضوها بين ظهرانيها. فبينما كان المسيحيون يتهمون اليهود بقتل المسيح، عليه السلام، وينعتونهم بـ«الشعب قاتل الرب» ويلعنونهم في صلواتهم، ظل اليهود يرفضون الاعتراف بنبوءة المسيح. وهذه الخصومة الدينية هي التي تلخصها الآية الكريمة

في قوله تعالى: "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون»[6] صدق الله العظيم.

ثم تطعم هذا السلوك الشاذ عند اليهود بانعزاليتهم السكنية في الغيتوات، واشتغالهم بالربا والحرف الذميمة، وممارستهم بعض الطقوس الدينية والعادات الاجتماعية الخاصة في الأكل والزواج والختان والدفن والذبح، وممارساتهم المثيرة مثل «الفطير المعجون بدماء البشر»، ومواقفهم العنصرية من باقي الأجناس والديانات وفقا لمقولة «شعب الله المختار»، وانخراطهم في المنظمات السرية مثل الماسونية والأحزاب المتطرفة مثل الشيوعية، واتهامهم بالتورط في عدد من الخيانات الوطنية[7].

ما يهمنا من هذا كله، هو أن هذه الممارسات الشاذة التي ألصقت، حقا أو باطلا، باليهود منذ القديم، أدت إلى رفضهم داخل مختلف الدول الأوربية على المستويين الحكومي والشعبي، وغالبا ما انتهى بهم الأمر إلى الطرد والنفي الجماعيين. وصعوبة اندماجهم هاته هي التي يصطلح عليها في الكتابات الحديثة بـ«**المسألة اليهودية**» التي استمرت قائمة منذ العصور الوسطى حتى الحرب العالمية الثانية، وبلغت أوجها خلال فترة الحكم النازي لألمانيا في شكل سياسة عنصرية إقصائية[8].

يستفاد مما سبق، أن عجز اليهود، لأسباب ذاتية وموضوعية، عن الاندماج في المجتمعات الأوربية، جعل فكرة العودة لديهم إلى فلسطين قائمة باستمرار ولا ينقصها لتنتقل من حيز الاعتقاد إلى حيز التطبيق سوى الوسائل المناسبة للتوظيف والتنفيذ. وغني عن القول إن الفترتين الحديثة والمعاصرة، شهدتا ما يكفي من التطورات والأحداث للدفع في اتجاه استغلال هذا الوضع الحرج لليهود إلى أقصى حد ممكن. ومن عجيب الصدف أن أول من سيدشن هذه الخطوة، هو المصلح الديني المسيحي، مارتن لوثر، وأتباعه من بعده. ثم تعزز هذا الموقف أكثرعندما اقترن تحقيقه لدى أتباع المذهب البروتستانتي بعودة «المسيح المخلص» وفق نبوءة «العصر الألفي السعيد»[9].

المقدمة الثالثة: الصهيونية المسيحية و" عقيدة الخلاص البروتستانتية": ساهم الإصلاح الديني الذي شهدته أوربا خلال ق.16 في الدعاية والتعريف، بطريق غير مباشر، بالمشروع اليهودي . الصهيوني في فلسطين قبل ميلاد الحركة الصهيونية. وهذا معناه أن المسيحيين البروتستانت قد تصهينوا قبل أن يتصهين اليهود أنفسهم بحوالي أربعة قرون. فبعدما يئس المصلح الديني، مارتن لوثر، من تمسيح اليهود وتضايق من ممارساتهم الشاذة ووقف على حجم الخطر الذي يمثلونه بالنسبة لنموذج المجتمع الذي كان يسعى إلى إنشائه، اجتهد في توجيه نداءات متكررة إلى الحكام الأوربيين طالبا منهم تمكين اليهود من العودة إلى فلسطين باعتبارها، حسب معتقده، أرضهم "الموعودة". كما أن ترجمته للعهدين القديم والجديد إلى اللغات الوطنية الأوربية، ساهم، بقوة غير مسبوقة، في التعريف بخصوصية اليهود من الناحتين الدينية والعرقية. ومعنى هذا، أن مارتن لوثر كان أول من روج بشكل قوي للأفكار الأساسية التي ستشيد عليها الحركة الصهيونية دعايتها في نهاية ق.19، من قبيل «شعب الله المختار» و «الشعب اليهودي» و «العودة» و «أرض الميعاد». فقد كتب يقول في مؤلفه «اليهود وأكاذيبهم»: «وغريبة الغرائب أننا إلى اليوم لانعلم السبب في حلول اليهود بيننا، وأي شيطان جلبهم إلينا. فنحن لم نأت بهم من **بيت المقدس**. وفوق كل ذلك، لا أحد منا يأخذ بحجوزاتهم اليوم ليقيموا عندنا وفي أرضنا، ويمكنهم الانتقال إلى **بلدهم** في أي وقت يشاؤون"[10]. ثم أضاف: "وإذا هم اختاروا الرحيل عنا، فنحن مستعدون أن نقدم لهم حسن المعونة، حتى نتخلص منهم"[11]. وختم كلامه قائلا: "ليت هؤلاء اليهود عندنا يحشرون إلى **بيت المقدس**، مع من يريدون من بني قومهم الآخرين"[12].

وهكذا، تأسس ما سيسمى لاحقا بتيار "الصهيونية المسيحية"، وأخذت المطالبة بعودة اليهود إلى فلسطين تنطلق على شكل نداءات قوية من قبل شخصيات مسيحية نافذة في أوربا الغربية بشكل خاص. واكتسى هذا التيار خطورة أكبر عندما اقترنت هذه العودة لدى أتباع المذهب البروتستانتي بعودة "المسيح المخلص". لهذا السبب، انبرت عدة شخصيات سياسية وفكرية تطالب بتسريع هذه العودة، وتخطط لها طلبا لهذا الخلاص. وفي هذا الصدد كتب راعي الكومونويلث البريطاني، أوليفر كرومويل، يقول: «إن الوجود اليهودي في فلسطين هو الذي يمهد للمجيء الثاني للمسيح»[13]. أما البروتستانتي الألماني،

بول فلجن، فعبر عن تفاؤله بتحقق هذا المجيء الثاني بقوله: «إن مما يثبت ذلك (عودة المسيح) العودة الدائمة لليهود إلى بلدهم الذي منحهم الله إياه من خلال الوعد غير المشروط الذي قطعه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب»[14]. أما اللورد كوبر، فذهب إلى أبعد من هذا عندما قال إنه "يجب مساعدة الله في تحقيق هذه الخطة الإلهية حول المجيء الثاني للمسيح من خلال تمكين اليهود من العيش في فلسطين المسترجعة"[15]. لذلك، فهو يرى، وعلى الرغم من اقتناعه أن «اليهود غلاظ وقلوبهم سوداء، وغارقون في المعصية، ويجهلون اللاهوت، ضروريون بالنسبة للأمل المسيحي في الخلاص»[16].

ويمكن أن نلمس خطورة مثل هذه النداءات منذ وقت مبكر عندما نعلم أن اللورد كوبر هذا قد ساهم بشكل مباشر في فتح أول قنصلية بريطانية في القدس سنة 1839م من خلال الضغوط التي مارسها على عمه اللورد بالمرستون، وزير الخارجية البريطاني، الذي أكد بصورة صريحة أن عليه حماية اليهود الذين يعيشون في فلسطين[17].

وقد عبرت الباحثة الأمريكية، غريس هالسل، في كتابها «النبوءة والسياسة» عن هذه الحقيقة التاريخية المتصلة بتيار الصهيونية المسيحية بقولها: «لمدة مائة وخمسين عاما كان المسيحيون [في الدرجة الأولى في بريطانيا وكذلك في مناطق أخرى من أوربا، وبعد ذلك بدرجة كبيرة في أمريكا] المدافعين الوحيدين عن الصهيونية»[18]. وعلى الرغم من قولها: «لمدة قرن ونصف، لم يحصلوا على دعم من اليهود في حركتهم الصهيونية غير اليهودية»[19]، يؤكد السفير الإسرائيلي الأسبق لدى الأمم المتحدة، بنيامين نتنياهو، في خطاب له أمام المسيحيين الصهاينة بتاريخ 6 فبراير 1985 الدور الحاسم الذي لعبته الصهيونية المسيحية في ظهور وتبلور الحركة الصهيونية اليهودية بقوله: «لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية للعودة إلى إسرائيل. وهذا الحلم (...) تفجر من خلال المسيحيين الصهيونيين. إن المسيحية الصهيونية لم تكن مجرد تيار من الأفكار. إن مخططات عملية وضعت فعلا من أجل عودة اليهود (...) لقد قدم المسيحيون عملا طويلا متواصلا وناجحا للصهيونية...»[20].

مختصر القول، إذا كانت نداءات هذه الشخصيات السياسية والفكرية المنبثقة عن تيار الصهيونية المسيحية قد بقيت في أغلب الحالات مجرد حبر على ورق، فقد ترتب عليها لفت انتباه اليهود إلى إمكانية تحقيق بغيتهم في فلسطين، خاصة عندما تأججت النزعة القومية في المجتمعات الأوربية في القرن 19 وضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

المقدمة الرابعة: الحركات القومية في أوربا وفكرة "الوطن القومي اليهودي": أما المقدمة الرابعة، فتمثلت في **الحركات القومية** التي اجتاحت بقوة غير مسبوقة عددا من المجتمعات الأوربية في القرن 19، وتمخضت عنها حركات سياسية عنيفة وأحيانا متطرفة. اعتمدت هذه الحركات في صياغة نظريتها في بناء الدولة القومية على مقولة «**الشعب العضوي**» أو ما يعرف بـ"الفولك" (volk) حسب الصيغة الألمانية، ووصلت أوجها في ألمانيا على عهد الحكم النازي متخذة شكل عقيدة دينية حينما أصدرت قوانين عنصرية صارمة بهذا الخصوص ضد اليهود وباقي الأقليات العرقية.

عملت هذه الحركات القومية، انطلاقا من هذه القناعة العنصرية، على "تطهير" أوطانها من "العناصر" التي كانت تعتبرها "دخيلة" على شعوبها "العضوية"، مقدمة بسلوكها ذاك للحركة الصهيونية، التي كانت ساعتها قيد التشكل، نموذجا يحتذى في بناء وطن قومي خاص باليهود ولو تطلب الأمر طرد شعب آخر. وإذا كان المقام لايسعنا للإستطراد في الشهادات الواردة في هذه الباب، فيمكننا أن نقتصر على الإشارة الذكية والمحكمة التي لخص فيها الباحث اللبناني، جورج قرم، الأثر الكبير الذي مارسته الحركة القومية الأوربية - إلى جانب الصهيونية المسيحية- في إثارة الأطماع الصهيونية من جديد في فلسطين حينما قال: "لولا اللاهوت البروتستانتي- بالإضافة إلى الإيديولوجيا القومية لأوربا- لما أمكن قط للحركة الصهيونية أن تلقى أي تأييد لمشروع ما كان يحظى حتى بموافقة الغالبية العظمى من اليهود أنفسهم، وإن لأسباب متباينة بل ومتعارضة. هذا التأييد من جانب البروتستانتية، سيتجدد عندما ستتزعم الولايات المتحدة الأمريكية العالم الحر في عام 1945، [لأنها] ستضع كل وزنها لتمكين إسرائيل من القيام عام 1948، لتكريسها على الصعيد الدولي"[21]. ثم أضاف مؤكدا: " وبالفعل إن السياسة الأمريكية ليست مشبعة بالأفكار القومية الأوربية الكبرى فحسب، بل كذلك بالعقيدة البروتستانتية في ثقافتها وفي إيمانها الديني[22] (...) لكن وبصرف النظر عن هذه الأحداث الفاعلة في أعماق الثقافة الأوروبية، وبالتالي في

رؤية العالم التي تنتظمها منذ عصر النهضة، فإن رجوع اليهود إلى فلسطين هو إنجاز للنظام القومي للعالم "كمال" العمل البروميتيوسي لأوروبا المسماة بأوروبا "الأنوار": العمل الرامي إلى إعادة بناء العالم القديم، والعودة إلى الجذور، وتجميد التاريخ في "وهم" فحواه أن الأمم وجدت على الدوام في في خصوصية ثابتة" "[23].

المقدمة الخامسة: الحركة الاستعمارية والدور الوظيفي للمشروع اليهودي- الصهيوني: تتجلى المقدمة الخامسة في **الحركة الاستعمارية** التي شكلت التعبير الخارجي للنزوع الهيمني لدى القوميات الأوربية الصاعدة، رغبة منها في الاستقواء ضد بعضها البعض في عوالم ما وراء البحار. وكان من بين الوسائل التي تنبهت إليها هذه الدول، مبكرا، مقايضة المشروع الصهيوني في فلسطين مقابل توظيفه في تحقيق خططها الاستعمارية؛ فانهالت على اليهود، جراء ذلك، عروض قوية طورت لديهم حسا استعماريا فاق نظيره الأوروبي.

ففي الوقت الذي كانت تشتد فيه معاناة اليهود داخل أوروبا القومية ويزاد أكثروعيهم بمشاكلهم وخصوصيتهم، كانت الحركة الاستعمارية تصوب أنظارها نحو أملاك الدولة العثمانية المحتضرة التي أضحت تنعت بـ"رجل أوروبا المريض"، وفي مقدمة ذلك المشرق العربي. فأضحى هذا الأخير، بسبب ذلك، هدفا استعماريا رئيسا تتصارع من أجله إنجلترا وفرنسا، ناهيك عن روسيا وإيطاليا. هذه الدول الاستعمارية، على اختلاف توجهاتها، كانت مستعدة لمقايضة دعمها للمشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين مقابل توظيفه في خططها الاستعمارية المستقبلية.

في هذا الإطار، يقول طوماس كلارك في كتابه "الهند وفلسطين" والصادر سنة 1861: "إن احتلال اليهود لفلسطين تحت الحماية البريطانية هومسألة حيوية؛ لأنه إذا كانت بريطانيا تعتمد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمتها، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر القارات الثلاث القديمة، وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا جوهريا، فليس هناك أفضل من زرعهم على طول الطريق العظيم للتجارة القديمة"[24]. أما إدوارد بيتفورد، العضو في مكتب المستعمرات في لندن، فقد كتب يقول في سنة 1845: "إن إقامة دولة يهودية في فلسطين، تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتماد على أنفسهم (...) ستضعنا في مركز القيادة في الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدي لهم عند الحاجة"[25].

[]

المخططات الصهيونية أو الإستغلال الذكي والماكر لمختلف الأزمات الدولية

1. **إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية(1897)**: تمثلت أول خطوة قام بها اليهود بخصوص التخطيط لتحقيق أطماعهم الاستيطانية في فلسطين، في تأسيس ما بات يعرف بـ"المنظمة الصهيونية العالمية" في أعقاب انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897 ببال بسويسرا. فمن الآن فصاعدا، ستشكل هذه المنظمة بمختلف مؤسساتها وأذرعها الآداة الرئيسة والأقوى لترجمة وتنزيل الأهداف الصهيونية على أرض الواقع في هذا البلد، مستغلة في ذلك، كمجال تطبيقي، مجموع الأزمات الدولية التي سيشهدها العالم؛ بدءا من الحرب العالمية الأولى، التي نقلت المطالب اليهودية في فلسطين من مستوى الاستعطاف الدولي إلى "الاستحقاق الأممي"، ومرورا بنظام الانتداب البريطاني الذي تولى تنفيذ سياسة التهويد في فلسطين، والنظام النازي الذي منح الحركة الصهيونية فرصة غير متوقعة لقلب المعادلة السكانية في فلسطين لصالحهم، وانتهاء بالحرب العالمية الثانية التي منحت اليهود فرصة المشاركة فيها إلى جانب الحلفاء مما مكنهم من إحراز خبرة عسكرية وتأييد سياسي دولي غير مسبوقين، ثم الحرب الباردة التي حولت رهانات القوتين العظميتين المقبلتين على الدور الي يمكن أن يلعبه المولود المرتقب فيما بات يعرف بـ "الشرق الأوسط" إلى عروض سخية و منافسة محمومة.

2. **خلق حاضنة يهودية في فلسطين**: شكل خلق حاضنة يهودية في فلسطين الهاجس الأول للحركة الصهيونية باعتبارها الشرط الأولي للمطالبة بما يسمونه وطنهم القومي. وقد استخدموا لأجل تحقيق هذا الهدف مختلف أساليب المكر والاحتيال، وأعانهم في ذلك عدد من الجهات العليا والنافذة التي كانت لها مصلحة في ذلك، مستغلين في ذلك حالة التفكك

والانهيار التي كانت تشهدها الدولة العثمانية، صاحبة السيادة الشرعية والقانونية على فلسطين. وهكذا، قفز عددهم من حوالي 9000 نسمة سنة 1839 إلى 24000 سنة 1882، ثم تضاعف هذا الرقم مرتين سنة 1900 حيث انتقل إلى حوالي 50000 نسمة، قبل أن يستقر فيما مجموعه 85000 قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914، وهو ما شكل، في حينه 12% من العدد الإجمالي لسكان فلسطين، وهو 700000 نسمة[26].

هذا، ناهيك عن الأراضي التي حصل عليها اليهود في شتى أنحاء فلسطين بدعم وتمويل "سخي" من قبل عدد من أثريائهم من ذوي النفوذ السياسي الكبير في دول استعمارية كبرى مثل إنجلترا وفرنسا، ومنهم على الخصوص موسى مونتفيوري والبارون إدموند روتشيلد[27]. فوصلت مساحة الأراضي التي أصبحت بحوزة اليهود، سنة 1914، حوالي 418 ألف دونم، وأصبح لديهم 44 مستعمرة زراعية[28].

وغني عن البيان الدور الذي لعبته المنظمة الصهيونية العالمية، التي تأسست سنة 1897، في توجيه تيار الهجرة نحو فلسطين، والرفع من وتيرتها؛ لأنها أصبحت تكتسي، هذه المرة، طابعا سياسيا استعجاليا لإقامة "الوطن القومي اليهودي"، مستغلة في ذلك ما تسميه في أدبياتها بـ"المذابح اليهودية" التي حصلت في روسيا وغيرها[29].

3. **الحرب العالمية الأولى (من الاستعطاف الدولي إلى "الاستحقاق الأممي"):** إذا كانت هذه الحرب قد هددت المشروع اليهودي عند اندلاعها؛ لأنها أوقفت تيار الهجرة الذي كان قد انطلق في اتجاه فلسطين منذ نهاية ق.19[30]، فإن نهايتها لصالح إنجلترا وحليفاتها حمل بشرى غير متوقعة للأطماع اليهودية في فلسطين. ذلك أن هذه الأزمة الدولية لم تمكن اليهود من انتزاع وعد بلفور منذ 2 نونبر سنة 1917 فحسب، بل حملت إليهم كذلك "بشرى" تحقيقه على أرض الواقع عندما أنهت الحكم العثماني لفلسطين وأوقعتها في قبضة إنجلترا بعد أن دخلتها قواتها في هذه السنة. وتوج كل ذلك بتبني عصبة الأمم سنة 1919 لهذا الوعد، وحملت إنجلترا مسؤولية تطبيقه على أرض الواقع، وهو الشيء الذي تم فعلا بعد انعقاد مؤتمرسان ريمو سنة 1920.

وهكذا، انتقلت الأطماع اليهودية في فلسطين، بسبب هذه الأزمة الدولية، من مستوى الاستعطاف الدولي حينما كان تيودور هيرتزل يتوسل، المرة تلو الأخرى، للسلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، كي يسمح لليهود بأن يكون لهم موطئ قدم في جهة ما من أرض فلسطين، مقدما بين يده مقابل تحقيق ذلك عروضا سخية ومغرية[31]، إلى مستوى "الاستحقاق الأممي" حينما أضحى هذا الوعد يكتسي، بسبب تبنيه من قبل عصبة الأمم المتحدة، صفة الإلزام القانوني. وغني عن القول إن هذا "الإنجاز التاريخي" لم يكن ليتحقق لولا التأثير القوي الذي كان يمارسه رؤوس الحركة الصهيونية العالمية، مثل حاييم وايزمن وغيره[32]، على صانعي القرار السياسي في هذا المحفل الأممي المتحيز أصلا للأطروحة الصهيونية.

4. **الانتداب الإنجليزي (سياسة التهويد وقلب المعادلة السكانية):** لكي يتم تطبيق وعد بلفور في فلسطين، كان لابد من إخراجها من السيادة العثمانية تحت شرعية ما ووضعها تحت إدارة دولة مستعدة لتنزيله على أرض الواقع. وهو الشيء الذي تحقق فعلا عندما قرر مؤتمر سان ريمو المنعقد بإيطاليا سنة 1920 وضع فلسطين تحت انتداب إنجلترا، صاحبة وعد بلفور، مع تحميلها مسؤولية تنزيله بما يفي بشروط خلق "الوطن القومي اليهودي" بهذا البلد.

ورغم ذلك، ظلت حظوظ تفويته لليهود ضئيلة طالما استمر الشعب الفلسطيني يشكل فيها الغالبية العظمى وتشغل مختلف فئاته الاجتماعية أهم القطاعات الاقتصادية. فقد ذكر مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، أن عدد اليهود في فلسطين لم يكن يتجاوز سنة 1920 خمسين ألف فرد يقابلهم حوالي مليون عربي فلسطيني[33]. لذلك، وجب على دولة الانتداب نهج خطة استيطانية محكمة في مختلف القطاعات، وخاصة منها فتح باب الهجرة اليهودية نحو فلسطين، بهدف إضفاء الطابع اليهودي عنوة على فلسطين. عرفت هذه الخطة باسم "سياسة التهويد" التي ما تزال أطوارها جارية لحد الآن. مارست إنجلترا هذا البرنامج السياسي المكثف، بإمعان وقصدية، طيلة مدة انتدابها على فلسطين، لكن بوحي وتعاون وثيق مع الدراع القوية للحركة الصهيونية ممثلة في الوكالة اليهودية التي كانت بمثابة دولة داخل الدولة، مما وفر، في نهاية المطاف، شروط الاستقواء والغلبة لصالح المشروع اليهودي . الصهيوني على حساب أصحاب الأرض الشرعيين، أي الفلسطينيين.

5. **النظام النازي (جيل جديد من المهاجرين اليهود نحو فلسطين):** إذا كانت سلطات الانتداب قد فتحت باب الهجرة اليهودية الطوعية نحو فلسطين على مصراعيه باعتبارها الدعامة الرئيسة في سياسة التهويد، فإنها ظلت، رغم ذلك، عاجزة عن توفير العدد الكافي من المهاجرين لإضفاء الطابع اليهودي على هذا البلد. إلا أن صعود هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا منذ سنة 1933 ونهجه سياسة عنصرية تجاه اليهود، اضطر عددا كبيرا منهم إلى مغادرة ألمانيا في اتجاهات مختلفة كان من بينها فلسطين.

وإضافة إلى هذا الظرف الموضوعي، ساهم قادة الحركة الصهيونية بدورهم في تسريع وتيرة هذه الهجرة. فرغم حالة العداء التي كانت مستحكمة بين هذه الحركة والنظام النازي، اضطرتهما مصلحتهما المشتركة إلى الدخول في اتفاق يقضي بمساعدة ألمانيا في التخلص من اليهود الموجودين على أراضيها على أن يتم السماح بتوجيه جزء مهم منهم، رغم إرادتهم، إلى فلسطين[34]، الشيء الذي ترتب عليه بسرعة تحقيق زيادة قوية في أعدادهم بها حينما انتقل في أواسط الثلاثينات إلى حوالي 400 ألف فرد.

7- **الحرب العالمية الثانية (مكاسب صهيونية كبيرة وخسائر فلسطينية غير متوقعة):** أدى اندلاع هذه الحرب، وما ترتب عليها من اجتياح ألماني لأغلب دول أوروبا الشرقية حيث كانت توجد أعداد كبيرة من اليهود، إلى جعل هؤلاء تحت التهديد المباشر لآلة القتل النازية، مما اضطرهم إلى الهجرة في اتجهات مختلفة كان من بينها فلسطين مما جعل أعدادهم هناك تصل، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إلى حوالي 650 000 ألف نسمة.

إضافة إلى هذا المكتسب الديمغرافي الهام جدا، منحتهم مشاركتهم الرمزية في هذه الحرب إلى جانب الحلفاء خبرة قتالية وعتادا عسكريين وتعاطفا دوليا، في وقت كان فيه العرب قد راهنوا على الحصان الخاسر، أي ألمانيا، مما جر عليهم غضب الدول المنتصرة وأضعف موقفهم تجاهها.

فمن حيث الخبرة العسكرية، يخبرنا الحاج أمين الحسيني أن عدد اليهود الذين دربهم الإنجليز وجندوهم في الجيش البريطاني، بلغ ثلاثة وثلاثين ألف يهودي. نقل هؤلاء المجندون، بمساعدة الإنجليز، كميات من مختلف الأسلحة إلى فلسطين، وقاموا بتوزيعها على مستعمراتهم ومنظماتهم الإرهابية[35]. وفي سنة1943، أقنع زعماء الحركة الصهيونية الإنجليز بتأليف فيلق يهودي وإلحاقه بالجيش البريطاني. وبعد انتهاء الحرب، عاد أفراد هذا الفيلق إلى فلسطين، ومعهم أسلحتهم الخفيفة[36].

أما التعاطف الدولي، فقد تحصل لليهود نتيجة لهذه المشاركة العسكرية الرمزية، وبسبب المذابح التي يمكن أن يكونوا قد تعرضوا لها في أوروبا من قبل أجهزة النظام النازي.

وهكذا، نجد أن المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين قد اكتسب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ليس فقط قاعدة بشرية صلبة، ولكن أيضا خبرة وزادا عسكريين، إضافة إلى التعاطف السياسي من جانب الدول المنتصرة في الحرب، وفي مقدمتها قادة العالم الجدد، وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. هذا، في وقت كان فيه رموز الحركة الوطنية الفلسطينية، مثل الحاج أمينالحسيني، قد راهنوا على الطرف الذي خسر الحرب، وهو ألمانيا وإيطاليا واليابان، مما أضعف موقفهم من الناحتين العسكرية والسياسية.

8. **الحرب الباردة: من حليف قوي إلى حلفاء أشد وأقوى:** في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطوريتان الاستعماريتان، إنجلترا وفرنسا، تتخففان من عبء "ممتلكاتهما" الاستعمارية في آسيا وإفرقيا، كانت القوتان العظميتان، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، تتهيآن لاقتسام التركة الاستعمارية على شكل مناطق نفوذ لتعزيز معسكريهما. ونظرا للموقع الاستراتيجي للمشرق العربي، نجحت الحركة الصهيونية للترويج لدى هذين القوتين للمكاسب الاستراتيجية التي يمكن أن يحصلوا عليها بمجرد قيام دولة يهودية حليفة في المنطقة يشكل فيها مهاجروها امتدادا طبيعيا وجسرعبور نحو منطقة الشرق الأوسط الواعدة بخيراتها. لذلك، لم تتوان العظميتان في دعم المشروع الاستيطاني في فلسطين قبل الإعلان عن تحققه النهائي بها بما يكفي من المال والسلاح والاعتراف السياسي[37]، مما وفر لليهود دون غيرهم من الفلسطينيين شروط

القوة والغلبة اللازمتين لهزم المقاومين الفلسطينين ومعهم الجيوش العربية الستة التي ستحارب إلى جانبهم في حرب 1948. وتوج كل ذلك باعتراف العظميتين بإسرائيل فور الإعلان عن قيامها.

وفي الأخير، يجدر القول إن هذه المقدمات الكبرى وتلك الإنجازات الذاتية ما كان لها أن تفعل فعلها وتمكن اليهود من الاستحواذ على فلسطين، لولا حالة الضعف والتجزئة الاستعمارية التي كان يتخبط فيها العالمان العربي والإسلامي. فأسطورة "الدولة العبرية"، التي ما فتئت وسائل الإعلام الصهيونية تروج لها، انتقلت من خيال الصهاينة إلى حيز الوجود بسبب ما أضحى يعانيه الفلسطينيون والعرب عموما من ضعف وهوان. وإذا كان المقام لايتسع للتطويل أكثر، فيمكننا الاقتصار على شهادتين للتدليل على حالة الضعف هاته؛ واحدة من مصدر يهودي، وأخرى من مصدر فلسطيني.

أما الشهادة اليهودية، فنقرؤها في كتاب "لقاءات مع زعماء عرب"، لصاحبه بن غوريون[38]، وهو عبارة عن حوار دار بين هذا الزعيم الصهيوني والزعيمان القوميان، شكيب أرسلان[39] وإحسان الجابري[40]، بسويسرا سنة 1934. فبعد عرضه للنفوذ الذي تمارسه الحركة الصهيونية على القرارات الدولية، وصف بن غورين حالة العرب فقال: "أنتم متفرقون وضعفاء، ومن المحال أن تجمعوا كلمتكم، وإن جمعتم فمن الصعب تنظيم صفوفكم. أنتم أسرى في قبضة الدول الكبرى، ولاحول لكم ولا طول حيالها. والدول العظمى هي معنا، جيوشها وحرابها في خدمتنا، فأنتم مضطرون لقبول مطالبنا"[41].

أما الشهادة الفلسطينية، فهي عبارة عن مقال كتبه خليل زقوت في جريدة "الزمر" تحت عنوان "على منبر الحرية" علق فيه على الأسلوب السياسي الذي كانت تعتمده الزعامات الوطنية في تعاملها مع الأوضاع الفلسطينية، فقال: "الحمد لله والشكر لله على ما أعطانا الله من زعامة واهية، وهيآت وأحزاب لاهية، ومستقبل مخيف تختفي وراءه كل داهية، ومؤتمرات واجتماعات فاهية، وخطابات عاتية، وصحافة ترتارة غير خافية، ومبادئ في بعض الرجال متراخية. فالبلاد تجتاز أزمات، والشعب محاط بالمصائب والملمات، والأراضي تذهب من أيدي الوطنيين العرب بمئات الدونمات"[42].

[]

خلاصة واستنتاج: يستنتج من التفاصيل التي تضمنها المحوران السابقان، أن موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي الصهيوني يتم تدريسه، في الغالب الأعم، في الأسلاك التعليمية الثلاثة، بما في السلك الجامعي، تحت عناوين مغلوطة وخاطئة، ووفق منهجية عاجزة، من حيث طبيعتها، على النفاذ إلى عمق الإشكالية التي أدت إلى وقوع فلسطين تحت طائلة استعمار من نوع خاص، هو الاستعمار الإحلالي، الذي، وخلافا لأنواع الاستعمار الأخرى، يحرص على توفير شروط الدوام والاستمرار على أرض يعتبرها خالصة له وحده دون غيره من أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين. لهذا السبب، اقترحنا عنوانا بديلا نعتقد أنه هو الأصلح من غيره لمعالجة هذا الموضوع. كما استعرضنا الخطوات المنهجية التي يجب، في نظرنا، تتبعها للإلمام بمختلف التطورات الموضوعية والذاتية التي أدت، عبر مدى زمني طويل، إلى قيام الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين منذ سة 1948.

[1] أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى السلطان مولاي سليمان، بني ملال.

[2] حول المنهجية التي اعتمدتها الرواية الصهيونية في محاولتها لتهويد الزمان المكان الفليسطينيين بهدف اختلاق شرعية ما لتبرير قيام إسرائيل الحالية، أنظر: كيث وايتلام، *اختلاق إسرائيل القديمة*، إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 249، شتنبر 1999.

[3] أنظر عبد الوهاب المسيري: *اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيري جديد*، ج.1، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 1999

[4] ظهرت في المدة الأخيرة مجموعة من الدراسات والأبحاث الجادة والرصينة التي تشكك في الرواية الإسرائيلية الصهيونية بخصوص علاقة اليهود بفلسطين من الناحيتين الدينية والسياسية، خاصة فيما يدعونه من قيام ممالك لهم هناك واتخاذهم مدينة القدس عاصمة لها. أنظر بهذا الخصوص كتاب فاضل الربيعي: *القدس ليست أورشليم، مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين*، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2010

[5] للوقوف على زيف هذا الادعاء، راجع الكيفية التي ناقشه بها سمير جرجس: *المخططات الصهيونية: الاحتلال، التهويد*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات، رقم 12، بيروت، 1981، صص.6-9. وكذلك كتاب كيث وايتلام: *اختلاق إسرائيل القديمة*، مصدر سابق.

[6] سورة البقرة، آية 113

[7] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، أنظر عبد الوهاب المسيري: *الإيديولوجية الصهيونية، دراسة في حالة اجتماع المعرفة*، سلسلة عالم المعرفة، عدد 60، ج.1، شتنبر 1982

[8] استندت هذه السياسة العنصرية على حزمة من القوانين التي أصدرتها السلطات النازية سنة 1935، واشتهرت تحت اسم قوانين نوربورغ.

[9] هالسيل، غريس: *النبوءة والسياسة، الإنجيليون الجدد في الطريق إلى الحرب النووية*، ترجمة محمد السماك، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1990، ص.118-119

[10] لوثر، مارتن: اليهود وأكاذيبهم، دراسة وتقديم وتعليق محمود النجيري، مكتبة النافذة، القاهرة، 2007، ص.113

[11] نفس المصدر، ص.113

[12] نفس المصدر، ص.116

[13] نفس المصدر، ص.120

[14] نفسه

[15] نفسه

[16] نفس المصدر، ص. 120

[17] نفس المصدر، ص. 121

[18] نفس المصدر، ص.122

[19] نفسه

[20] نفس المصدر، صص.122-123

[21] قرم، جورج: *أوروبا والمشرق العربي، من البلقنة إلى اللبننة، مشروع حداثة غير منجزة*، دار الطليعة، بيروت، 1990، صص.120-121

[22] نفس المصدر، ص121

[23] نفسه

[24] كلارك، طوماس، *الهند وفلسطين*، 1861

[25] هالسل، مصدر سابق، ص.122

[26] عوض، عبد العزيز محمد: "هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها 1874-1914"، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد 3، العدد3، 1974/1973.

*يجدر التنبيه إلى وجود تناقض واضح بين المصادر فيما يخص تطور عدد اليهود في فلسطين قبل سنة 1922 التي شهدت إجراء أول إحصاء رسمي، وخاصة فيما يتصل بسنة 1914 حيث تذهب مصادر أخرى إلى أن عددهم لم يكن يتعدى 55000 فرد، ولا يمثلون إلا 8% من مجموع ساكنة فلسطين.

[27] أنظر بهذا الخصوص، مجدي، كامل: آل روتشيلد: المال عندما يخلق دولة من العدم، دار الكتاب العربي، 2008

[28] "الهجرة الصهيونية إلى فلسطين"، الموسوعة الفلسطينية، https://www.palestiniapedia.net

[29] شكل اتهام اليهود باغتيال قيصر روسيا الإسكندر الثاني سنة 1881 وما تلاه من أحداث مشابهة في هذا البلد الذي كانت تقطنه جالية يهودية كبيرة، مناسبة مواتية للترويج للدعاية الصهيونية، خاصة بعد إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية سنة 1897.

[30] انخفض عدد اليهود في فلسطين من حوالي 85000 فرد سنة 1914 إلى 56000 فرد خلال الحرب العالمية الأولى. لمزيد من التفاصيل، أنظر: جرجس، مصدر سابق، ص.19، هامش رقم 15

[31] لأخذ فكرة واضحة عن الحوار الذي دار بين السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتيودور هرتزل والذي عرض فيه هذا الأخير ثمنا مغريا للأراضي التي يمكن أن يقيم فيها اليهود في فلسطين، أنظر: حسان علي حلاق، الدولة العثمانية والحركة الصهيونية، 1897-1919، بيروت، 1978

[32] شغل وايزمن منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بين سنتي 1920-1946، ثم ريسا للكيان الصهيوني سنة 1949. ويذكر أنه لعب الدور الأول في انتزاع وعد بلفور من بريطانيا سنة 1917.

[33] ماردیني، زهير: *فلسطين والحاج أمين الحسيني*، دار إقرأ، بيروت، 1986، ص.31

[34] "ساعد القادة النازيون الحركة الصهيونية في مساعيها لتوجيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشكل في برلين "مكتب فلسطين لتنظيم هجرة اليهود الألمان"، ولم يعد ممثلو الحركة الصهيونية "يأتون إلى ألمانيا النازية لانقاذ اليهود الألمان بل لاختيار الرجال والنساء والشباب المستعدين للذهاب إلى فلسطين لكي يصبحوا روادا ويناضلوا ويحاربوا". وحظيت سياسة تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين بتأييد هتلر نفسه، وأيدت الحركة الصهيونية استعدادها "لتحرير ألمانيا من يهودها (...) لقد منحت اتفاقية "همغراه" الحركة الصهيونية سلاحاً قوياً لأنها سمحت بهجرة اليهود الألمان وحدهم إلى فلسطين وتعويضهم. وأما سائر اليهود فقد كانت أموالهم تصادر بدون أي تعويض. وكان منظمو الهجرة الصهيونيين ينالون، بالتعاون مع النازيين، حصتهم من الفوائد المادية على حساب الافراد من اليهود". هكذا تحدثت *الموسوعة الصهيونية* عن علاقات التعاون التي جمعت بين الحركة الصهيونية والنظام النازي في ألمانيا /https:/www.palestiniapedia.netالنازية-الصهيونية

[35] *فلسطين الحاج أمين الحسيني*، مصدر سابق، ص.311

[36] نفسه

[37] خلافا لما يعتقده الكثيرون، كان الاتحاد السوفييتي من الداعمين الكبار للكيان الإسرائيلي قبل إنشائه ومن بعد، خاصة على مستوى تزويده بالأسلحة المتطورة، وذلك لأسباب متعددة؛ منها أنه كان يعتبر خلق هذا الكيان في فلسطين، سيكون بمثابة "فتح شيوعي" في منطقة كانت تدخل عموما تحت دائرة النفوذ الغربي الرأسمالي. أنظر بهذا الخصوص:

- نهاد الغادري: *التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية*، الكاتب العربي، بيروت، 1969.
- محمد أمحزون: *تاريخ العلاقات الشيوعية – الصهيونية*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995.

[38] هوديفيد بن غوريون. من المؤسسين الأوائل لحزب العمال الإسرائيلي، وشغل منصب رئيس الوزراء في الكيان الإسرائيلي منذ سنة 1948

[39] سياسي ومفكر لبناني. اشتهر بعمله المتواصل والذؤوب لصالح القضايا القومية والإسلامية ومقاومة الاستعمار في المشرق والمغرب.

[40] سياسي ومفكر سوري. اشتهر بدفاعه عن القومية العربية، شارك في المؤتمر العربي الأول، وشغل مناصب إدارية وسياسية عليا في سوريا خلال العهد الفيصلي وبعده.

[41] بن غوريون، دافيد: لقاءات مع زعماء عرب.

[42] زقوت، خليل: "على منبر الحرية" (*جريدة الزمر*، عدد 515، 1932/5/12).